الفصل الخامس

ادخلــوا يا يهــود

لو لم أكن لنفسى، فمن يكون لها؟

حتى الآن لم يقم شعب إسرائيل بأى دور فعّال فى عملية إعادة فتح الطريق التدريجى إلى فلسطين. فى أول عودة لهم من النفى، حينما كانت بلاد فارس هى القوة التى أعادتهم، كان اليهود على استعداد للرجوع بمجرد أن أعطى الملك «قورش - Cyrus» كلمته، وقد عاد اليهود من بابل فى حشد من أربعين ألف يهودى مصطحبين معهم أوانيهم وأوعيتهم الفضية، وإبلهم وجيادهم وحميرهم. ولكن فى ذلك الوقت كان اليهود مجتمعين، واستمر ابتعادهم عن جبل صهيون لمدة خمسين عامًا فقط. أما هذه الفترة فالاغتراب اليهودى الثانى استمر لمدة ١٨٠٠عام، وأصبح الشعب اليهودى مشتتًا فى كل مكان بالعالم، يبذلون مجهودًا مملاً ومفرطًا فقط من أجل البقاء على قيد الحياة، وألا يتم استيعابهم أو يفقدوا هويتهم. لقد نجحوا فى ذلك، وكانوا الشعب الوحيد فى تاريخ البشرية الذى حافظ على هويته بدون وطن قومى، ولكن الثمن كان مقيتًا. لقد نجحوا فى البقاء فقط عن طريق الانغلاق على أنفسهم ووضع أنفسهم فى قوقعة صلبة من المعتقدات الدينية، وقد ركزوا كل فكرهم فى الشىء الوحيد الذى استطاعوا إحضاره من بلدهم، وهو التراث أو القانون (الشرع اليهودى)، أو بمعنى آخر التوراة والتلمود. كل الناس يمكنهم أن

يحرثوا الأرض ويزرعـوا ويبنوا ويحاربوا، ولكن مثل هذه الأشـياء لا يستطيع أن يـفعلها اليـهود حيث إنهم لـيس لديهم أرض. فأى أرض يزرعونهـا ويجنونها ويبنون عليهـا ويحاربون من أجلها؟ حينمـا انهار المعـبد، فطبـقًا للأسطورة، دخلت شظيـة من حجـارته فى قلب كل يهودى، وهذا الحجر فى قلوبهم كان وطنهم الوحيد.

ولكن مع تغيـر الزمن لم يعد ذلك كافـيًا. لقد قـال **«مازينى» رائد الحركة القـومية فى القرن التاسع عـشر: بدون وطن لا يوجد لديكم اسم أو صوت أو حقوق أو قبول وسط الشعوب الأخرى. ستكونون حثالة البشرية ومنبوذين بين الشعوب، كبنى إسماعيل. لقد كان يخاطب الإيطاليين وليس اليهود، ولكن صيحـته كانت تعبر عن روح العصر، وبدأ اليهـود يسمعونها أيضًا.**

وحتى عـام ١٨٠٠م، مرت القـرون وظل اليهود فى حـالة انتظار سلبى لحدوث مـعجزة خارقـة للطبيعـة فى شأنهم. لقد ظلت عـبارة «الصلاة الـعام القادم فى أورشـليم» تقال عـام بعد عام مـنذ عام ٧٠ ميـلادية، مثل قطرات الماء التى تـسقط على الحجـر. ولكن الآن بدأ بزوغ فكرة: أنه بأيديهم هم فقط وبعملهم الجاد سوف يمكن لإسرائيل أن تتخـطى ذلك الشتات. لـقد كتب المؤرخ «هـنيرتش جراتيـز» سنة ١٨٦٤م: «يجب أن يكون الشـعب اليـهودى هو مـسيح أنفسـهم». **وكانت هناك قوى كثيرة تعـمل فى القرن التاسع عشر من أجل إحداث هذه الفكرة الثورية.**

يكاد يكون من المستحيل المحاولة للوصول إلى تقارير أو أبحاث حول عملية البعث الحديث للشعب اليهودى دون اليأس من التورط فى متاهات يهودية داخلية وسياسات خارجية أوروبية. لقد نقلت أوروبا اليهود إلى فترة «التنوير» والتحرير، وذلك على أثر اليقظة الأوروبية بسبب الثورة الفرنسية، ولكنها نقلتهم أيضًا إلى فترة من الصراع الدينى والاجتماعى الذى مزق الديانة اليهودية التى طالما تشبثوا بها خلال قرون الشتات، وأدى ذلك الصراع إلى أنهم أصبحوا تائهين للأبد فى المعركة الجديدة من أجل الحرية القومية وأخيرًا من أجل الدولة. لقد كانت خلفية الأحداث هى تاريخ أوروبا تحت حكم نابوليون، ثم رد الفعل على اختفاء نابوليون، والمحاولة العابثة لـ «التحالف المقدس» من أجل الحد من الحكم الفردى وثورتى ١٨٣٠ و١٨٤٨م، وظهرت الحركات القومية الليبرالية والاشتراكية وحركة «بسمارك» والحركة الألمانية الشاملة (Pan-Germanism) واضطربت روسيا فى المراحل الأخيرة للشيخوخة القيصرية. كل هذه القوى أثرت فى اليهود، مثل التشنجات والتقلصات اللتين تحدثهما آلام المخاض، وأدت بهم إلى عملية الولادة المتعثرة كأمة.

لقد بدأت العملية بحركة «التنوير» التى بدأها «موسى منديلسون - Moses Mendelssohn» فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر، والتى كسرت قوقعة الانغلاق الدينى اليهودى، وفتحت الطريق أمام اليهود للتعرف

على الثقافة الغربية والمشاركـة فى الأحداث الغربية. لقد انكسر حكم التلمود والحاخامات، وتم فتح النوافـذ اليهودية التى أغلقت فى جميع أنحاء أوروبـا. وبدأ اليهود يـقرأون لـ «ڤولتيـر» و«روسو» و«جوته» و«كانت». لقد تلت حركة الإصلاح عملية الإسقاط اليهودى للطقوس الدينيـة القديمة ومـحاولة تكيـيف اليهـودية مع العالم الحـديث. لقد أصبح «التحـرر المدنى» هو الهدف. لقـد أقرت «الجـمعيـة التشـريعيـة الدستورية الفرنسية» فى عام ١٧٩١م حق اليـهود كمواطنين بفرنسا، وأكده ناپوليون فى كل مكان تحت سيادته. ولكن الرجـعية ألغت ذلك الحق، وكان على اليـهود فيـما بعـد الحرب من أجل ذلك الحق فى كل دولة عـلى حدة. لقد نالوا «التحرير المدنى» فى حوالى منتـصف القرن التاسع عشر، ولو كان الأمر ناجحًا لانتهت اليـهودية عند ذلك الحد. ولكنه لم يكن كذلك، وأثناء محاولة اليـهود لاكتشاف عـدم نجاح الأمر اكتشفـوا القومية. لقد أصـبحوا يدركـون أن اليهـودية تحتضـر؛ وذلك بسـبب التحـجر فى قـشرة جافـة من الأسلوب الحبرى المبهم والمعقد من ناحية، وبسبب التحلل فى الهواء الطلق «للتنوير» الغربى من ناحية أخرى. وإذا كان مقدرًا لليهودية البقاء، فإنها فى حاجة مـاسة لتربة جديدة. لقـد وفرت القومية هذه التـربة، ومنذ ذلك الحين فقد أصـبح التحرك تجاه فلسطين يتم ببطء وتردد وعـدم رضا، وليس بدافع الحمـاس بل بدافع الضرورة. ولم تكن أبدًا حركة واحـدة تسير فى خط مسـتقيم، بل كـانت عبـارة عن شظيات متناثـرة لنزعات وجمـاعات

متناقضة، مثل الإصلاح ضد التقليد، القومية ضد الذوبان، الاثنان ضد الصهيونية، وعقب كل ذلك نباح الكلاب ضد السامية(*).

وكانت الحركة السياسية المعادية للسامية وليدة القرن التاسع عشر. لقد نهضت مثل العنقاء السوداء من رماد الفتح النابوليونى، وكانت ألمانيا، ولا عجب فى ذلك، هى مسرح الأحداث. وظل صوت «Hep! Hep!» يدوى عبر شوارع «هايدلبرج» و«فرانكفورت» عام ١٨١٩م تصاحبه عمليات الشغب، واستمر نهب البيوت اليهودية زمن حادثة دمشق وقوانين مايو ومذابح روسيا، واستمرت أيضًا خلال قضية «دريفوس» حتى محرقة هتلر. وكان ذلك الصوت دائمًا يؤدى إلى دفع اليهود، بعضهم إلى القومية وفلسطين، والبعض الآخر إلى حركات التهرب من الواقع والذوبان فى الشعوب الأخرى.

وهذا الضغط هو ما أثبت أن ذلك التنوير والتحرير مجرد خداع. وبالرغم من روح الحماس التى غلبت على القرن التاسع عشر والإيمان الشديد بالتقدمية، إلا أن الحركة المعادية للسامية لم تختف. واعتقد المتدينون الأرثوذكس من قبل، أن عليهم فقط أن ينتظروا وقتًا كافيًا وسوف يظهر المسيح ويعيدهم بشكل إعجازى إلى جبل صهيون، واعتقد أنصار الذوبان أن عليهم فقط أن ينتظروا وقتًا كافيًا، ولو أنهم

(*) هذه ترجمة حرفية لما كتبته المؤلفة بالإنجليزية:

The baying of the hound of anti - semitism.

ظلوا هادئين ومهذبين ولا يزعجون أحدًا، فـإن الحركة المعادية للسامية ستختـفى فى سديم الحركة التـقدمية وحب الإنسان لأخـيه الإنسان. ولكن هذا لم يحدث إلى حد ما. فالحركـة المعادية للسامية لم تتلاش أمام العصا السحرية للماركسية أو أمام الاشتراكية العالمية.

وجدً اليهـود سعـيًا للبحث عن حـل فى العديد من الاتجـاهات المختلفـة، كافحـوا من أجل أن يكونوا مواطنين عـاديين فى أى دولة يعيشون فيها وأن يظلوا يهودًا فى نفس الوقت. وحاولوا إيجاد مخرج لإخـوانهم المضطهـدين فى الشـرق يحفظ لـهم فى نفس الوقت ذلك القدر من الحـرية والحيـاة الكريمة التى وجـدوها فى الغرب(*). لقد أحدث ذلك الشد والجذب شقاقًا حزبيًا مأساويًا بين اليهود، لم يحدث منذ الأيام الأخيرة للمعبد حينمـا ظلت الأحزاب الدينية تحارب بعضها البعض، بينما سـقطت المدينة على مرمى سمعهم. تعـمقت الخلافات وتكاثرت الانشـقـاقات وتزايدت العـداءات، مما أعـاق الجـهود نحـو

(*) لم يحـدث فى تاريخ الشرق الأوسط ولا تاريخ المسلمـين اضطهاد لليـهود، كـما حدث فى أوروبا، فـقد طردوا من انجلتـرا، ومن إسبـانيا، وتكررت الاعـتداءات عليهم فى أوروبا كلها من روسيا حتى انجلترا، وثار عليهم الشعب الروسى وأعمل فيهم الذبـح فى نهاية القرن التاسع عـشر، كذلك فعل هتلر، وقد ذكـرت الكاتبة الكثيـر من ذلك فى كتـابها، ولم تذكـر حادثة قـتل جمـاعى لليهـود فى الشرق الأوسط، إلا ما كان من الرومان قبل الإسلام، وإلا ما حدث فى فلسطين ردًا على الاعتداءات الصـهيونية فى القرن العـشرين، والتى كان ضحايا الفلسطينيين فـيها، دائمًا منذ بداية الغزو الصهيونى وحتى اليوم، أضعاف ضحايا اليهود.

مشروع الوطنية مثلما تعوق الوطن اليهودى الآن. ولكن ما زال نباح الكلب(*) يحافظ على بقاء الحركة المعادية للسامية. **وحينما سمع «هيرتزل» ذلك النباح فى فرنسا المستنيرة عاد إلى بيته ليكتب «الدولة اليهودية» ويناشد الكونجرس الصهيونى أن يضع «مركب الدولة اليهودية فى طريقه». ولكن «موسيه هيس» كان قد سمعه فى دمشق قبل ذلك بخمسين عامًا.**

لقد كان «هيس» يهوديًا متحررًا مثل «هيرتزل» الذى جاء بعده. وكان «هيس» أحد الرواد القدامى للاشتراكية الألمانية الذين كانوا يعتبرون أنفسهم اشتراكيين أولاً ثم ألمانيين ثانيًا ويهودًا أخيرًا، هذا إذا كانوا يعتبرون أنفسهم يهودًا أصلاً. وفجأة صدمته حادثة دمشق كما لو كانت لكمة غير متوقعة. لقد أظهرت الحادثة أن اليهود ما زالوا يسجنون ويعذبون، وأنهم مجتمع كامل يسلب وينتهك بسبب ادعاء مدسوس من خرافات القرون الوسطى، وألقت الحادثة بظلال سوداء على كل المجتمع اليهودى من نيويورك إلى أودسا. وكتب «هيس» بعد ذلك قائلاً: «ثم لاح لى لأول مرة وسط أنشطتى الاشتراكية أننى أنتمى إلى شعبى المنبوذين والمحتقرين والمشتتين . . . وأننى أريد أن

(*) حتى اليوم، أى من ينتقد سياسة الصهاينة، أو سياسة إسرائيل، هو كلب ينبح. ويمكن للقارئ أن يطالع «المسألة اليهودية» للروائى الروسى العالمى ديستوفيسكى، أو«اليهودى العالمى» هنرى فورد الأمريكى (مؤسس شركة فورد لصناعة السيارات) يقرأ عنهما أنه لم يشتك شعب فى العالم مثل اليهود.

أعبر عن مشاعرى الوطنية اليهودية بصرخة أسى». ولكن الأسى لم يكفه، فقد كان يريد حلاً. وكان هناك حل وحيد. ويتلخص فى عبارة «مازينى» التى لم تكن قد كُتبت بعد آنذاك، ولكنها لا مفر منها: «بدون وطن فأنتم حثالة البشرية»، إن التحرير مجرد سراب. وبصرف النظر عن مدى قسوة الحقيقة فعلينا أن نواجهها. فى عام ١٨٦٢م نشر «هيس» كتابه «**روما والقدس**» والذى كان له عنوان فرعى هو «أحدث قضية قومية». وكتب فيه: «لقد حانت الساعة لإعادة الاستيطان على ضفاف الأردن. فقد كان وجود وطن أمرًا ضروريًا». وكتب «هيس» أيضًا: «بواسطة اليهود يجب بالضرورة الحصول على استقلال قومى قبل التقدم السياسى والاجتماعى، وليس بواسطة أى شعب آخر، فالشعوب الأخرى، ولو كانت مقهورة فهى على الأقل تعيش على أراضيها. ووجود أرض قومية مشتركة هو شرط أساسى للاستقلال القومى اليهودى...».

ولكن «هيس» كان يعرف ما لم يخطر على بال أى من المتحمسين لـ «شافتسبرى»، وهو أن شعبه أبعد ما يكون عن كونهم مستعدين لذلك. ما زالت الجماهير اليهودية مسجونة خلف مصاريع أبواب الأحبار التى يجب فتحها بالقوة من الداخل. وكان «اليهود التقدميون يختبئون خلف آمال تافهة سرعان ما ستتبعثر بمجرد لكمة من الخلف»، وكان من الواضح أن «المشكلة الرئيسية لدى الحركة القومية

اليـهودية هى . . . كـيفـية إيقـاظ المشاعـر الوطنية فى قلوب يهـودنا التقدمـيين؟ وكيفية تحـرير الجماهير اليهـودية بواسطة هذه الوطنية من تلك الشكليـة الكئيبـة والمحبطة؟». وفقط عنـدما يتحـقق ذلك، فإن مشروع «استعادة الدولة اليهودية سوف يجدنا مستعدين له».

استمر «هيس» من هناك فى رسم خـطط لاحتلال فلسطين. وكان يأمل فى مسـاعدة القوى العالمـية فى شراء الأرض المقدسـة من الباب العالى المفلس، وكان يـفكر فى فرنسا بالتحديد لتكـون القوة الوسيطة (حيـث كان «هيس» يعـيش آنذاك فى فرنسـا، وكان لويس نابولـيون بالفعل يسعى وراء نفوذ له فى سوريا). **وكان «هيس» يتنبأ بمسـتعمرات يهودية «تمتد من مصر إلى القدس ومن الأردن إلى المتوسط».**

وبينما كان هيس يعمل على تنفـيذ حله، كان يهودى آخر من نوع مخـتلف عنه قد وصل إلى نـفس النقطة بشكل مسـتقل، وهو الحبر هيرش كـاليشـر من ثورن ببروسـيا، وهو باحث يـحترمـه الناس من المدرسة القديمة، وقد أعلن مبـدأ مساعدة الذات من منبره التلمودى. وكتب فى عام ١٨٦٠م **«لا يجب أن يعـتقـد أحد بأن اسـتعادة إسـرائيل والمسيح ستحدث بمعـجزة سماوية وأن المسيح سيعيد الإسـرائيليين من التيه إلى إرثهم. إن الاسـتعادة سـتتم بشـكل طبيـعى من خلال رغـبة اليهـود فى الاستقرار فى فلسطين ورغبة الأمم فى مساعدتهم».**

وفى نفس العام، جـمع مؤتمر من الأحبار وقادة المجـتمع فى ثورن

للحث على تنشيط استعادة فلسطين. وبالرغم من التقدم المحسوس القليل، فقد كان سعى كاليشر لجبل صهيون بمثابة الخميرة فى العجين. وشاركه أحبار آخرون نفس الأسلوب تجاه العودة، ومن خلال تلاميذه وعلاقاته انتشرت أفكاره. لقد علمهم أن جهد اليهود على أرض فلسطين هو الوحيد القادر على استعادتها. وأراد أن يحمى جنود يهود المستوطنين اليهود. ولم يكن يثق بقدر كبير فى كرم القوى الغربية، وفضل مساعدة بنى جنسه.

وكان يرجو المساعدة من أبناء جنسه، فكتب رسائل إلى «مونتيفيور» وعائلة «روت شيلد» يحثهم على تمويل المجتمعات الاستعمارية اليهودية، وشراء الأراضى، ونقل المهاجرين وترسيخ اليهود الذين يعرفون الزراعة على قطع أرض حرة، وتعيين معلمين لتدريب الآخرين، وأخذ قروض حتى تصبح المستوطنات قائمة بذاتها ويمكنها الاعتماد على نفسها، وإنشاء نظام شرطة وحراسة عسكرية ومعهد تدريبى زراعى.

لقد تمت البداية على هذا النحو بواسطة «التحالف الإسرائيلى العالمى» الذى تأسس فى «باريس» عام ١٨٦٠م. وكان ذلك التحالف الأول من نوعه، تلته بعد ذلك مؤسسات شبيهة فى أوروبا تعمل عل حماية ورفاهية اليهود. وكانت فلسفة التآلف بابوية وليست وطنية على النحو الذى طالب به «هيس» وبعده «هيرتزل»، فالوطنية كانت فكرة جديدة

آنذاك، أو على الأقل كانت فكرة ميتة منذ زمن ومن الصعب إحياؤها، وسوف تأخذ وقتًا طويلاً للإمساك بها. أما فكرة الخيرية الإنسانية، أو بتعبير أدق مسئولية المجتمع عن المحتاجين، فكانت دائمًا تقليدًا مستمرًا لإسرائيل وقديمًا جدًا مثل القبائل. بدأ التحالف يعمل الآن فى اتجاه فلسطين. قام «مونتيفيور» الذى كان يعمل وحده بثلاث رحلات إلى فلسطين قبل إنشاء طرق السكة الحديد والبواخر، وكان مجموع الرحلات التى قام بها قبل وفاته سبع رحلات، آخرها فى سن التسعين. كان «مونتيفيور»، أو «أمير إسرائيل»، دائمًا ما يتحرك فى أى وقت وفى أى مكان تحدث فيه محنة أو اضطهاد لمجتمع يهودى. فقد سافر فى ظروف كهذه إلى القسطنطينية فى سن التاسعة والسبعين، وإلى المغرب وإسبانيا فى سن الثمانين، وإلى موسكو فى سن الثامنة والثمانين. ولم ترهبه المسافة التى سيقطعها أو الكارثة التى سيتعامل معها أو الحشود المشاغبة التى سيقابلها، لم يرهبه الجليد أو الصحراء. وبصرف النظر عن عادات «مونتيفيور» المهيبة وشخصيته الوقورة، فبمفرده لم يستطع تحقيق إلا القليل من الأثر الدائم للحد من تلك الحوادث مثل حادثة دمشق، وأمثلة أخرى تكررت فى كل مكان وأيقظت الضمير الجماعى لدى اليهود المتحررين فى الغرب. ولكن هدف التحالف كان محددًا بالنسبة لفلسطين، وهو تقديم مأوى آمن لليهود المضطهدين.

أنشأ التحالف مدرسة تدريبية زراعية بالقرب من يافا سنة ١٨٧٠م.

وفى نفس الوقت بدأ تدفق بسيط من المستوطنين اليهود شيئًا فشيئًا من روسيا، والتى نشأت فيها المجتمعات الاستعمارية تحت تأثير كتّاب متأثرين بأفكار كل من «هيس» و«كاليشر». وفى «ڤيينا» كانت الجريدة الناطقة باسم هذه الأصوات الجديدة هى جريدة «ها شاهار - Ha Sha-har» (الفجر). وقام رئيس تحريرها «بيريز سمولينكسن» فى سنة ١٨٧٣م بنشر كتاب له بعنوان «الشعب الخالد» والذى كان له أثر عظيم بين يهود الشرق. ويسخر الكتاب من النظرية المدللة لدى أنصار الذوبان، وهى أن إسرائيل بقيت فقط كديانة، وأكد أن اليهود هم ناس أحياء. وظلت هذه العبارة فى الكتاب وهى «كلب حى خير من أسد ميت» منذ ذلك الحين تستخدم للتدليل على سعة الهوة بين القومين والتمثيليين. وفى نفس العام كتب موسى ليلينبلوم فى صحيفة «ها شاهار» «إعادة ميلاد الشعب اليهودى فى أرض أجداده» وقد رددت أصوات أخرى فى روسيا وبولندا وألمانيا والنمسا وفرنسا وإيطاليا نفس الموضوع فى كتاباتها. **وبدأت الكتب والمقالات والصحائف المكتوبة بالعبرية تتوالد فى شرق أوروبا فى السبعينيات. لقد أشبعت هذه الكتابات العاطفة اليهودية الجدلية، ولكنها كانت موجهة أساسًا لاستعمار فلسطين كأساس للانبعاث الروحى للديانة اليهودية.**

لقد جعلت هذه الكتابات الناس يفكرون، ولكنها لم تجعلهم يتحركون. لقد فعل نباح الكلب (الحركة المعادية للسامية) ذلك، ولكنه الآن انقلب إلى صيحة حادة ونباح جماعى مثل ذلك النباح الذى

يسبق القتل. وفى ألمانيا فى أواخر السبعينيات ظهرت الحركة الألمانية الجدلية المعادية للسامية بقوة فى سياسات الأحزاب والصحافة، وأشيعت النظريات العلمية الزائفة التى يسر العقلية الألمانية الانغماس فيها. وأوضح «بسمارك» كيف يمكن استخدامها لصالح السياسة. وفى أسبوع عيد الفصح لعام ١٨٨١م فى روسيا، أصبح الدرس محل الممارسة، وبدأ عهد جديد من الحركة السياسية المعادية للسامية فى شكل سياسة قومية واعية تتبناها وتشجعها الدولة. وفى غضون ثلاثة أيام أصبحت روسيا الغربية من البحر الأسود حتى البلطيق كتلة من الرماد؛ بسبب أنقاض البيوت اليهودية المتهدمة (على حد استخدام الكلمات التصورية لـ «لوسيان وولف»). ومن «وارسو» إلى «كييف» إلى «أوديسا» عبر مائة وستين قرية صغيرة، تم شن أعمال همجية تصل إلى درجة الوحشية - ولم يعرف مثلها منذ العصور الوسطى - على اليهود ووصل صداها إلى العالم عن طريق التقارير المروعة للبعثات الديبلوماسية والصحافيين.

قوانين «نورنبيرج - Nurnberg» كان النموذج الأمثل الأصلى لها هو قوانين مايو ١٨٨٢م، والتى صدرت على نحو متعمد لتجعل اليهود يخسرون ديارهم وموارد أرزاقهم، وحطمت قرى يهودية بأكملها، ودمرت الاقتصاد اليهودى المتقلقل أصلاً، وقننت تحت اسم «أوامر مؤقتة» مذبحة مستمرة.

وكـان الســـبب وراء هذه الانفـجــارات نفس الســبب المـوجـود لدى «النازية»، وهو استخدام اليهـود فى دورهم التقليدى ككبش فداء لخلق نوع من تحويل الانتـباه عن أزمـة قادمة فى الـطريق، وإزالة الغضب الشـعبى من الطبقة الحاكمة.

ومع مـرور سنتى ١٨٨١ - ١٨٨٢م تعلمت الغـالبيـة العظمى من يهود روسيا ما أخذ يهود غرب أوروبا تقـريبًا مائة عام ليتعلموه، وهو أن التحرير سيكون وهميًا ما لـم توجد وراءه كرامة دولة لتسانده. لقد أسرعوا إلى القـومية، ليس لأنهم لم يحصلوا على التـحرير أو يلزموا أنفسهم بالذوبان، بل لأنهم لم يتعلقوا بوهم، لم ينتابهم شبح «الولاء المزدوج»، فبعد تلك المذابح والأوامر العليا والعصابات الإجرامية، أى ولاء يمكن أن يكون لديهم تجاه روسيا؟

وكما أسفرت «حادثة دمشق» عن «هيس»، أسفرت مذابح ١٨٨١م عن كـتيب بعنوان «التـحـرير الذاتى» لطبيـب أوديسا الدكـتور «ليـو پنسكر». كان ينادى بنـفس كلمات الرباى «هيلل» آخر مـعلم يهودى عظيم قبل سـقوط المعبد. كـان يقول: «**إن لم أكن لنفسـى فمن يكون لها؟**». وكان «پنسكـر» يصرخ أن اليهـود يجب أن يحرروا أنفـسهم، «علينا أن نعيد بنـاء أنفسنا كأمة على قيـد الحياة». لطالما افتقـد اليهود الرغبة فى أن يصبـحوا أمة مثل افتقار الرجل المـريض للشهية، ولكن يجب خلق هذه الرغبة.

بدون هذه الرغبة سيظل اليهود شبح شعب، وشبحًا لأمة ميتة يمشى حيّا بين الأحياء. اليهودى هو الأجنبى الأبدى، فلكل الأجانب الآخرين بلد فى مكان. ولكن اليهود فقط ليس لديهم بلد، وبدونها سيظلون أجانب فى كل مكان. «يا له من دور وضيع يقوم به شعب كانت له أمجاد يومًا ما!» لا فائدة إذن من الشكوى من الحركة المعادية للسامية، فإنها ستستمر طالما سيظل اليهودى شبحًا وغريبًا. «هناك شىء غير طبيعى فى وجود شعب بلا أرض مثل وجود رجل بلا ظل».

لقد حث «پنسكر» الجمعيات اليهودية الموجودة لعمل هيئة تشريعية (كونجرس) قومية وشركة مالية لشراء الأراضى وتنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين وإعادة الاستيطان. وكان يؤمن بأن رواد الحركة يجب أن يكونوا من يهود الغرب الذين يملكون القوة والمال والمعرفة بأمور الحياة، رغم أنه لم يتوقع منهم أن يشاركوا فى الهجرة إلى فلسطين؛ لأنهم مرتاحون فى الأماكن التى يعيشون فيها وسيفضلون البقاء فيها. سوف يأتى تأييد جماهيرى للمشروع من روسيا وپولندا، ولكن لن يأتى رواد له من هناك، فإن البيئة لم تتمكن من إنتاج مثل هؤلاء الرواد.

إن الرواد الذين كانوا يتمناهم «پنسكر» لم يكونوا مستعدين بعد، ولكن الشخصيات الأدنى منهم كانوا مؤثرين للغاية، وبينهم بدأت

مجهوداته ترى النور. لقد رتب لمؤتمر قريب من «كراكاو» بپولندا، وتم انعقاده يوم عيد ميلاد «مونتيفيور» المائة سنة ١٨٨٤م. وفشل المؤتمر فى إحداث هيئة تشريعية قومية يهودية، ولكن تم إنشاء ما هو أقل من ذلك، وهو «جمعية للاستعمار فى فلسطين» والتى تم تعيين «پنسكر» رئيسًا لها. وعرفت الجمعية فيما بعد فى مقرها الرئيسى باسم «لجنة أوديسا» وبدأت عملها الفعلى فى جمع المستعدين للعودة إلى فلسطين. لقد كان العاملون بالجمعية يطلقون على أنفسهم «أحباء صهيون». وكانت اجتماعاتهم التى كانت تطاردها الشرطة تعقد على ضوء الشموع فى القرى الصغيرة الموجودة عبر الحدود. وكان الطلبة يخوضون الطرقات الموحلة لتوزيع المنشورات. وأخيرًا بدأت عملية الهجرة الجماعية. وقد ألقت مهمة بداية إحياء الأمة التى ظلت ميتة طويلاً، وأرض فلسطين التى كانت نصف ميتة، على عاتق مجموعات قليلة من المستوطنين الذين لم ينظفوا حقلاً أو يحرثوا أخدودًا أبدًا فى حياتهم.

ولم تكن هذه حركة قومية بعد. وكان «هيرتزل» ما زال فى العشرينيات من عمره، شابًا أنيقًا من صالونات «ڤيينا»، وكان يكتب كتابات رشيقة وتراوده فكرة المسرح. ولم يقرأ أبدًا لـ «پنسكر»، واليهود المتحررون الآخرون الذين قرأوا له، استاءوا من فكرة الأمة والوطن، بل قاوموها. ويقول د. «أدولف چيلينيك» العالم اليهودى

المشهور بـ «ڤيينا» لـ «پنسكر» حينما زاره الأخير وعرض عليه الفكرة: «هذه مزحة . . . أنت مصاب بالحمى لا بد أنك تحتاج إلى دواء». لقد دون «چيلينيك» تلك المحادثة التى دارت بينهما.

يرد «پنسكر»: «إننى لا أدرى أى حل آخر».

ويبرر «چيلينيك» قائلاً: «وماذا عن التقدم، الحضارة؟! لن تظل روسيا رجعية كما هى للأبد!».

هذا ما أرادوا أن يؤمنوا به، وهو أن المعاداة للسامية مجرد طور وستنهيه التقدمية فى النهاية، وسوف ترعى ضحاياه فى نفس الوقت. إذ لا توجد ضرورة لحل جذرى كما يعتقدون.

وجاءت المساعدة من الغرب، ولكن لم تأت قيادة. سيمول دوقات اليهود أى شىء فى المشروع عدا أى خطوة سياسية. وأراد البارون «هيرش» أن يوجّه هجرة جماعية إلى الأرجنتين. وساعد البارون «إدموند دى روت شيلد»، والذى كان تقريبًا وحيدًا بين المنادين بثقافة غرب أوروبا، المستوطنات حديثة العهد فى فلسطين. وما كان يؤلمه أنه كان يعتبر شاذًا بينهم إن لم يكن شيئًا أسوأ من ذلك. لم يلق مشروع إحياء فلسطين فى ذلك الوقت حماسًا لدى المجتمع اليهودى المتحرر. لقد كتب الرئيس «وايزمان» فيما بعد فى سيرته الذاتية «بوجود رجل واحد، فإن ذلك الأمر يعتبر مجرد عاطفة، وذلك الرجل هو «إدموند»، بارون «باريس». ولو أن هناك دستة فقط من نوعية وقدرة

هذا الرجل لغيروا تاريخ فلسطين ولقضوا تمامًا على عوائق اليهود المناهضين للصهيونية، والمترددين والمعارضين فى العالم غير اليهودى، ولكننا لم يكن لدينا مثل هؤلاء الرجال».

والآن علينا أن نتوقف عند الثمانينيات؛ لأن الانطلاق الحقيقى للحركة الصهيونية ينتمى إلى عصر آخر، وفى نفس الوقت، فقد كانت انجلترا تتقدم ببطء نحو دورها المستقبلى كقوة وسيطة. لقد كان التحرير عملية عكسية؛ حيث إنه عرف اليهود بحضارة الغرب، وبدأ يعرف الغرب بالممثلين الجدد «لشعب الله القديم». فكانت رواية «ليسنج» مكتوبة على طراز صديقه «ميندلسون». وكانت ألحان عبرية لـ «بيرون» تركز على موضوع الافتقار المشئوم لوطن قومى، وكتبت قبل مجىء «هيس» بحوالى نصف قرن، وها هى أبيات منها:

«الحمامة البرية لها عشها، والثعلب له كهفه،

والبشر لهم بلادهم، وليس لإسرائيل إلا القبر!».

إن بيرون الذى مات أثناء الحرب من أجل الاستقلال اليونانى كان بطل الجيل الذى تمرد على طاغية «التحالف المقدس». لقد انتزع روح القومية من الهواء وحولها إلى أبيات شعرية. لقد كان «مازينى» يقرأ ثلاثة كتب وهو فى السجن، هم «تاكتيس» و«الكتاب المقدس» و«بيرون». لم يدق فى أى مكان آخر جرس الحرية بمثل ذلك الصوت العالى والواضح مثلما دق فى «تدمير سيناشريب» المعروفة بـ «ألحان

عبرية» فهى لم تكـن مجرد ترجمة شعرية للحظات بطـولية من العهد القديم. **يبدو أن «بيـرون» تشبع بروح الديانـة اليهودية التى مـا زالت على قيد الحياة، والتى كان يعبر عنهـا «ديزرائيلى» بفخر وعلى غير اليهود: «عش أنت على عقيدتك ولكننى سأمـوت على عقيدتى». ونفس الروح توجد فى سطور «توم مور - Tom Moore» «يدق صوت الجـرس العالى فـوق بحر مصر المظلم! لقد انتصر يهوه! لقد أصبح شعبه حرّاً!».**

وقد وضع سكوت هذه الروح فى شـخصيتـه الروائية «ربيكا» التى هربت مع «إيڤـانهـو» رغم أن «روينا» هى التـى تزوجت الرجل فى النهـاية، إن «ربيكـا» صـارت الشـعب التـواق الذى تصـوره روايات «ويڤرلى» عندما قفزت إلى المتـراس وتحدت النذل «بويس جيلرت» أن يخطو خطوة أخـرى وحينما تنعى «ربيكا» خـضوع واسـتكانة شعبـها لقدره، وتأسف لأن «صـوت البوق لم يعـد يوقظ يهوذا» فـإنها بذلك تعبـر عن روح القوميـة التى شهدها جـيل «سكوت» و«بيرون» والتى ستصل إلى اليهود العصريين فى غضون عدة عقود لاحقة.

حينما وصلت هذه الروح إلى اليهود لاحقًا، وجدت لها صدى فى انجلترا الڤيكتورية وفى كل القارة. ففى فرنسا تحولت كتابات «دوماس فيس» والذى كان أشـهر كاتب مسرحى فى عصـره فى مواضيع الحب والسل الذى يصيب النسـاء المشبوهات، كما فى «غـادة الكاميليا» إلى القومية اليهودية كمـا فى «امرأة كلود». ويقول بطل هذه المسرحية التى

كتبت سنة ١٨٧٣م: «إن أرضنا وطن الأسلاف أصبحت ضرورية لنا مرة أخرى». لقد شعر «سكوت» أن من واجبه أن يشرح فى طبعات لاحقة للرواية أنه كان مضطرًا لجعل «إيفانهو» يتزوج «روينا» وليست «ربيكا»، وذلك من أجل أن يكون العمل قابلاً للتصديق تاريخيًا. وفى انجلترا وبعد عام التفتت «چورج إيليوت» إلى أحدث قضية قومية كما كان يسميها «هيس»، وكتبت رواية «دانيال ديروندا» التى اتسمت بالموضوع ذى الطابع الخاص والذى يعبر عن انقسام فى الشخصية فى عام ١٨٧٦م. لم يكتشف بطل الرواية جذوره اليهودية إلا بعد أن أصبح فجأة نصيرًا متحمسًا للحركة القومية. ويقول البطل: «الفكرة التى تنتابنى هى فكرة استعادة الوجود السياسى لشعبى، وجعلهم أمة مرة أخرى، ومنحهم مركزًا قوميًا». ومثل كل روايات المتحمسين غير اليهود لقضية العودة، فإن «دانيال» لم يتردد لحظة فى المشاكل التى كانت تزعج اليهود الفعليين، مثل قضية الذوبان، والحركة المعادية للسامية، ومسألة اليهودية كدين أم جنسية؟ ومبدأ الكلب الحى أم الأسد الميت؟ إنهم لم يفكروا أبدًا فى قضية إحياء الرغبة فى الاستقلال السياسى أو فى اقتصاديات مشروع العودة، والعملية المادية للرجوع إلى فلسطين، واستعادة الأرض، وخلق مجال للعيش وكسب الرزق هناك.

لقد تجاهلوا كل ذلك واندفعوا بخطى واسعة إلى فلسطين، المكان

الذى سوف تبزغ منه إسرائيل الجديدة فى كامل نضجها مثل «أثينا». وفى الرواية ينصح «موردخاى» الذى كان ملهم «دانيال» قائلاً: «قوموا بإحياء المحور الرئيسى، وتطلعوا إلى أرض وسياسة ... إلى حياة قومية لها صوتها بين الشعوب ... استردوا الأرض وأسسوا قاعدة لها ... سوف يستفيد العالم كما تستفيد إسرائيل ... من وجود يهودية متوازنة بين الشرق والغرب كميثاق صلح بين الجانبين». وكانت «چورج إيليوت» مثل «شافتسبرى» وأتباعه تسيطر عليها الفكرة التى تبدو تهكمية اليوم، وهى أن الدولة الجديدة سوف تكون عامل تهدئة فى الشرق الأوسط، كما يقول «موردخاى» فى الرواية إنها سوف تكون: «أرض محايدة بالنسبة لعداوات الشرق مثل «بلچيكا» فى الغرب». فى الحقيقة يجب أن نأخذ فى الاعتبار الدين الذى فى عنق «چورج إيليوت» لـ «شافتسبرى» رغم أنها لم تعترف بذلك. لقد كانت فى سنواتها المبكرة إنجيلية تبشيرية متحمسة، ولم تغب عن نظرها القضية الرئيسية لدى الرواد الإنجيليين. لقد جاءها الإلهام المباشر لكتابة هذه الرواية من زوجها «چورج لويس» الذى كان صديقًا حميمًا لـ «موسى هيس» أثناء إقامته فى باريس.

وعلى العكس من شخصية «ربيكا» فقد فشل «دانيال ديروندا». إنه مخلوق نبيل وخير إلى حد بعيد جدًا بالنسبة للطبائع البشرية المعتادة. وكان قرّاء «چورج إيليوت» أكثر اهتمامًا بمغامرات «جويندولين» الرائع

المتعلقة بالزواج والذى كان يرفضه «دانيال» من أجل مصلحة الأرض المقدسة.

وبصفة عامة فإن الكتاب لم يؤثر فى النقاد. فقد اعتبر السير «ليزلى سيتفن» هدف «دانيال» فى استعادة الاستقلال السياسى لشعبه هدفًا «خياليًا»، وأن اختيار المؤلفة للموضوع قد صدمه؛ حيث إنه «يظهر شكلاً مختلفًا من روح الدعابة». ولو أن الكتاب قد فشل من الناحية الأدبية، فإنه على الرغم من ذلك كان له أثر كبير بالغ على الحركة القومية اليهودية. ربما بالغ «لوسيان وولف» فى تقديره حينما قال إن الأثر الذى أعطاه الكتاب للحركة كان «أقوى حافز مرت به الحركة منذ ظهور ساباتاى زيفى»، وعندما تبنت الشاعرة الأمريكية إمالازاروس قضية القومية اليهودية سنة ١٨٨٣م، أشارت إليها على أنها الفكرة التى بلورتها «چورچ إيليوت»، كما لو كانت «چورچ إيليوت» هى التى أنشأت فكرة القومية اليهودية.

بالرغم من أن شخصيتى «دانيال» و«موردخاى» ظلتا محلاً للسخرية إلا أن «چورچ إيليوت» كانت تأخذهما على محمل الجدية. لقد طورت فكرتها التى لعبت دورًا فى تفكير «بلفور»(*) فى ضرورة رد

(*) لقد كان «بلفور» طالبًا بين طلاب «جامعة ترينيتى كوليج» وقابل «چورچ إيليوت» أثناء زيارتها إلى «كمبريدج» بحثًا عن مادة لدراستها عن شخصية «ديروندا» وأصدقائه.

الدين المعنوى لليـهود فى عنق المسـيحـيين. ولكن تجاهل اليـهود أثار اشمـئزازها حـتى كتـبت إلى «هاريت بيـتشر» تـدعوه أن يجد أنـاسًا متعلمين «يعرفون أن المسيح كـان يهوديًا» أو يفترضون أنه كان يتحدث اليونانية. **«مسيحى كامل هو ثلاثة أرباع يهودى» قالت فى الرواية.**

ولكنها لم تجد سوى أقلية من عامة الشعب الإنجليزى تعترف بذلك الدين لليهود، وكـانوا يرون اليهود «ناس متحجـرون بطريقة شاذة .. وكان يجب أن يكونوا شيئًا آخر».

لقد تعمدت اختيار «دانيال ديروندا» فى مجهوداتها المستمرة لتحسين صورة اليهود عند الشـعب الإنجليزى، وركزت على الحقيقـة الأساسية أن «القومية» فقط يمكن أن تحل مشكلة الشتات.

وعلى حسب كلماتها **«يحتـاج العالم إلى أنبيـاء جدد من قبـيل عزرا، ومكابيـين من نوع حديث، يسـتطيعـون استـغلال الظروف الخـارجيـة، مع التغلب على الخـلافات الداخلية بين الـيهود، واحتـقار أعدائهم، ليـوحدوا أبصارهم (اليهود) فى اتجاه «أمة بين الأمم» مرة ثانية، منتصرين».**